الفصل الواحد والثلاثون

الخيط الرفيع

في شهر أيلول من سنة 1192م، تجمع في عكّا من ظل على قيد الحياة بعد الحملة الصليبية وجمعوا أسلحتهم وذكرياتهم واستعدوا للرحيل عن أرض الميعاد بعد أن جمعوا آلات المنجنيق وحزموا أمتعتهم الثقيلة الأخرى. أما عدد الرجال الذين ظلّوا على قيد الحياة بعد عذابهم الطويل فهو غير متوافر بدقّة. فقد تركز الجهد على تعداد عدد الموتى. وحسب التقديرات: واحدٌ فقط من كل اثني عشر ممن كانوا قد قدموا أساساً كُتب لهم الوقوف على رصيف عكّا الحجري في تلك الأيام المفعمة بالانفعالات بانتظار الإبحار على متن سفن القادس عائدين إلىٰ بلادهم. لقد كانوا يتطلعون إلىٰ «برج الذباب» وإلىٰ الوراء إلىٰ الأسوار التي كانوا قد اقتحموها قبل خمسة عشر شهراً. وقد ذكر مؤرخ الحوليات المسيحي الرئيسي للحملة الصليبية الثالثة أن عدد القتلى في عكّا وحدها وصل إلىٰ المئة ألف قتيل بينما وصل العدد الكامل للقتلى إلىٰ ثلاث مئة ألف قتيل. هذه الأرقام منافية للعقل ولكن ضريبة الموت في هذه الحرب تخطّت الخيال فعلاً وكذلك إمكانية الإحصاء الدقيق. وقد تخطّى عدد الذين قضوا بسبب المرض والمجاعة عدد الذين لقوا حتفهم في المعارك.

هل ماتوا سدى؟ لا لم يموتوا سدى إن كان الموت استشهاداً ونصيبه

دخول الجنّة مباشرة. ففي هذه المرحلة التاريخية الحزينة كان الهدف من هذه المغامرة الكبرى الاستشهاد.

كتب مؤرخ الحوليات: «في ذلك الزمان كان الكل من أحياء وأموات يخوضون كل على طريقته ضرباً من ضروب الاستشهاد. كل فرد منهم كان قد خاض هذه الحجّة البعيدة بقلب خاشعٍ ومخلص في حبه لله. من ذا الذي يمكن له أن يشك في خلاص أرواح رجال يتمتعون بهذا المستوى من النبل والفضيلة؟ كان لا بدّ من الاعتقاد بأن هؤلاء مثواهم الجنّة».

لم تكن الأخطار قد زالت بعد. فهنالك أيضاً فرص جديدة للاستشهاد على طريق العودة إلىٰ الوطن والمحفوفة بالمخاطر. مع إبحار سفن القادس من عكّا عصفت بهم رياح الخريف التي لم يكن يمكن التنبؤ بها حاملةً إياهم في اتجاهات مختلفة. العديد منهم أبعدتهم الرياح عن وجهة سيرهم فضلّوا ولم يستطيعوا بلوغ مقصدهم قبل أشهر عدة. والبعض منهم غرق. والبعض الآخر كان ينتظر حتفه بعد أن تخلّف عن أرض المعركة من جراء الأوضاع الصحية السيئة في تلك البلاد.

«حُمِل الملك ريتشارد بعناية فائقة إلىٰ حيفا ومن ثم إلىٰ عكّا حيث استقبلته ملكته «برنغاريا» وأختها «جوانا» ملكة صقلية السابقة وكذلك مغنّيه المحبوب «بلونديل دونسل» Blondel de Nesle واللاتي حضنّه واعتنين به خلال فترة تعافيه البطيء.

عانى الملك في الأسابيع الأخيرة لفصل الصيف المنحسر من الإحساس بعدم أهليته باعتباره حاجاً، ومن الهواء المسموم المخيم على ميادين المعركة القاتلة. تشبث بإصرار بالوهم الذي كان يراوده أنه عائد إلىٰ موطنه مؤقتاً لمدة ثلاث سنوات فقط، وهي مدة الهدنة فينقذ مملكته وعرشه ثم يعود بعد ذلك مجدداً تلبيةً لنداءٍ سامٍ على رأس جيش كبير حتى يبلغ هدف حجته ويستعيد قبر المسيح.

كان قادراً بالرغم من إعيائه المحموم على استجماع طاقاته لإبلاغ صلاح الدِّين من خلال السفراء عن نيته العودة. لا بد أنّ هذه المحاولات الجريئة على الطريقة الحربية البارثية قد جعلت صلاح الدِّين يبتسم ولذلك فقد أبلغه صلاح الدِّين بسماحة المنتصر أنه يشهد الله أنه لو قدّر له خسارة الأراضي الخاضعة لسيطرته لما أراد إلا أن تكون من نصيب ملك عظيم كالملك ريتشارد. فريتشارد حسبما كان صلاح الدِّين يصرح رجل شريف وشهم ومتفوق عموماً. وكان هذا الشعور متبادلاً. حتى كاتب سيرة ريتشارد لم يسعه وهو يغطّي هذا التراسُل الأخير بين ريتشارد وصلاح الدِّين إلاَّ أن يعلّق على طبيعة القدر المحيّرة. فالكثير من الشكوك كانت تلوح في الأفق. وكان ريتشارد وهو في صدد خطط مستقبلية لجمع جيوش صليبية إضافية والخوض في فتوحات ملحمية بطولية جديدة قد نسي قول الشاعر إذ قال:

تفكّرْ كيف أنّ كلَّ إنسان

معلّقٌ بخيطٍ رفيع

غادرت الملكة وشعراؤها ومغنوها في التاسع والعشرين من أيلول/ سبتمبر. ولكن ريتشارد اضطر للبقاء أحد عشر يوماً إضافيا من أجل إتمام بعض الأعمال العالقة. كان لا بد من التعامل مع مسألة، ألا وهي قضية ويليام دي بريو Williams des Préaux. إنّه الفارس النورماندي الشجاع المحب للناس الذي حال دون وقوع ريتشارد في الأسر منذ سنة خلت حين كان الملك وبعض حاشيته في أحراج على مقربة من اللد، وهاجمهم المسلمون على حين غرّة فبدأ بالصراخ منتحلاً شخصية الملك ريك تداركاً لوقوع الكارثة. وتم الآن تحرير ويليام لوحده مقابل فدية باهظة تتمثَّل بعشرة من أهم الأسرى المسلمين الذين كانوا مستعدين لشراء حريتهم بدفع كمية هائلة من الذهب. وبذلك سدّد ريتشارد حسابه الأخير في فلسطين.

وفيما كان يصعد على متن مركبه الملكي، تعالت أصوات الندب والعويل

تقول: «يا أورشليم، لقد أصبحتِ بائسةً لا عونَ لك بعد أن حُرِمت من هذا البطل. وإن حصل ونُكِثَت هدنة، فمن سيحميك من مهاجميك في غياب الملك ريتشارد؟» كلمة شرف من صلاح الدِّين وحدها كفيلة بحمايتهم. هذه هي الإجابة الصادقة إذا كانوا يثقون بكلامه.

عندما أصبح ريتشارد في عرض البحر وشاهد الساحل يبتعد في الأفق، قال: «أيتها الأرض المقدسة أستودعك الله. فليعنّي الله وليمدّ بعمري كي أهبّ لنجدتك. إذ إني آمل وأنوي أن أمد لك يد العون في المستقبل». ثم انقطع الحبل الرقيق الذي كان يربطه بفلسطين وحوّل ناظريه نحو الغرب.

II

الملحمة

ابتداءً من اللحظة التي حوّل فيها ريتشارد قلب الأسد عينيه بعيداً عن الأرض المقدَّسة باتجاه الغرب حيث مسقط رأسه، خرجت سيرة حياته من ملاحم التاريخ ودخلت القصص الرومانسية. تركه مؤرخوه الجادّون ليركّزوا على معركتهم الخاصة للعودة إلىٰ ديارهم سالمين معافين وحلّ القصّاصون محلّهم. وُلِدت أسطورة ريتشارد قلب الأسد في إلياذة عودته إلىٰ دياره. لقد بات الأوديسة الجديدة، والملحمة البطولية، إلاّ أنّ السَّيْرانات وآكلي اللوتس والمسخ أحادي العين اتخذوا شكل دوقات متلهفات على الثأر، وشعراء هزيلين، وشقيق خائن، وضباط عديمي القيمة، وسيدات يتكلفن الابتسام. وتضمنت مغامراته التنكر بشكل فارس هيكل وطباخ بالإضافة إلىٰ قلاع على قمم الجبال وزنزانات مظلمة، وكلاب الدّموم، وبطولات برزت فيها قوة هائلة وجسارة مذهلة، وفي آخر المطاف، كمية كبيرة من المال.

ولم تعد قصة ريتشارد مماثلة لقصة حملته الصليبية. لقد أصبح أخيراً

وحيداً وحدةً موحشة. أضيف الكثير إلىٰ خاتمة هذه القصة البطولية وتوسعت على مرّ العصور واحتوت على جرعات كبيرة من الخيال والابتكار إلىٰ أن وصلت إلينا اليوم، في زمننا الحديث، في صيغة قصص مناسبة للقراءة قبل الإخلاد للنوم. ولذلك علينا أن نكتفي بالذرات القليلة من الدلائل الحسية المتوفرة لنا ونتمتع بالحكايات المذهلة كما قدمت لنا.

طوال ستة أسابيع، هبّت الرياح الشرقية الحارة من صحراء ليبيا وتضاربت مع جبهات باردة من الشمال، وتلاعبت بباخرة الملك في البحر الأتروسكي كما تتلاعب بالريش. رست باخرته لبعض الوقت في قبرص بغية مباركة حكم غي دو لوسينيان، وبعد ذلك، تاهت الباخرة. في فترة من الفترات، حامت باخرته على مقربة من سواحل المغرب، وفي فترة أخرى، ظلّ ثلاثة أيام على مسافة قريبة من مارسيليا.

ولكنه لم يكن يكترث البتة بهذه الرياح العاتية. لقد أصبح البطل مطارداً. شعر مرافقوه العشرون بالخطر المحدق بهم أينما رست باخرتهم في أوروبا. ففي كل مرّة نظروا فيها إلىٰ الخرائط، وجدوا الشِراكَ منصوبة أمامهم. ففي كل أوروبا، تجمّع الأعداء القدامى والجُدد لمواجهته سواء في فرنسا وألمانيا أم في إيطاليا واليونان وبيزنطية. ابتعدت الباخرة عن ساحل مارسيليا عندما علموا من البواخر المارّة قربهم بأنّ الكونت دو تولوز، حفيد البطل الأسطوري للحملة الصليبية الأولى أي ريموند دو سان جيل، وكان عدواً قديماً من أيام النزاع الداخلي قبل بدء الحلات الصليبية، قد نصبا له شراكاً في جنوب فرنسا. وفي أماكن أخرى من وسط أوروبا، كانوا يستطيعون الاتكال على الملك فيليب أغسطس كي ينصب له الأفخاخ أينما تسنّى له، ليس في فرنسا فقط بل في أي مكان آخر. كانت الدبلوماسية موطن قوة عند فيليب كما كان ماكراً ومصرّاً على الثأر.

ولا شك في أن ملك فرنسا كان يشوّه سمعة ريتشارد لكل من يصغي

إليه. وفي الواقع، لم يكن بمقدور ريتشارد أن يدرك أبعاد هذا القذف والتشهير. فقد كان صديقه القديم يلصق به الاتهامات الخطيرة التي جمعت شغف المحبّ المطرود والمحارب المذلول في كل أنحاء أوروبا. فمنذ اللحظة الأولى التي وصل فيها فيليب إلىٰ الأرض المقدَّسة، حاول ريتشارد أن يخونه بتسليمه لصلاح الدِّين. وفور احتلال ريتشارد لصور، قتل كونراد أوف مونفرّا، كما أنه وضع السّم لدوق أوف برغندي وقضى عليه.

كان المستمعون المتحمّسون في أرجاء ألمانيا وإيطاليا كثرٌ. ومما نقلته استخبارات صليبيين آخر وافدين؛ فإنّ هؤلاء، الأعداء كانوا مستنفرين للتصدي لهجوم وشيك يقوم به ريتشارد. في منطقة الـ «بيدمونت» كان أنسباء «كونراد أوف مونتفرّا» ما يزالون في غليان من جرّاء اغتياله الظاهري، بينما كان أعداء الملك «تنكرد أوف صقليّة» الذي اغتصب العرش والذي كان ريتشارد قد تحالف معه متحشدين في كل أرجاء إيطاليا. في ألمانيا أيضاً كانت الصلة مع «تانكرد» بمثابة مشكلة إذ إن إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة «هنري السادس» الذي كان قد دعم المرشح الخطأ ما زال يدفع ثمن الخطأ هذا. والواقع أن الإمبراطور كان قد كلّف كل بلدة في مملكته باعتقال ملك إنكلترا إن استطاعوا ذلك ومن ثم تسليمه إلىٰ الإمبراطور. أما في بيزنطية فقد كان الحكام ما يزالون مستائين من إهانة ريتشارد «لإسحق كومننوس» في قبرص. وعلى طول نهر «الدانوب» كان بانتظاره ألدّ أعدائه «دوق النمسا» الذي كانت رايته قد تعرضت للرمي في الوحل بعد سقوط عكّا، والذي كان يحمّل ريتشارد شخصياً مسؤولية هذا التدنيس. بالمختصر المفيد لم تكن هنالك طريق آمنة للعودة إلىٰ إنكلترا. حتى هناك كانت المتاعب في انتظاره. فأخوه «جون» كان يستولي على الحصون طالباً ولاءها وهو يراهن بتفاؤل على استحالة بلوغ ريتشارد الشواطىء الإنكليزية. وكأنه لم يكن هنالك في العالم بأسره أحد سوى أمه «إليانور» الموجودة في «روان» تتمنّى عودة ابنها الثالث المحبوب سالماً.

رحلات ريتشارد قلب الأسد في الأدرياتيك والنمسا وألمانيا

Richard's Journey Through the Adriatic, Austria, and Germany

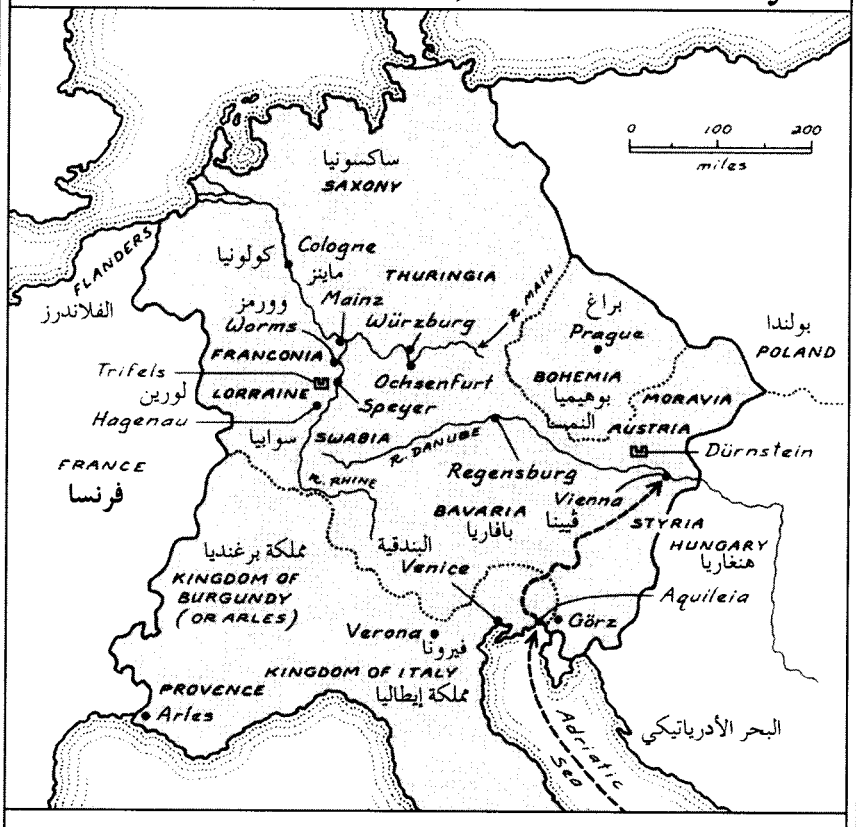

Holy Roman Empire الإمبراطورية الرومانية المقدسة

Richard's journey before his arrest by Leopold — رحلة ريتشارد قبل أسره من جانب ليوبولد

Castles where Richard was imprisioned — القلاع التي أُسر فيها ريتشارد

رافقت ريتشارد في رحلة العودة إلىٰ الوطن مجموعة من الحلفاء المقربين الشجعان. كان هناك «بالدوين» Baldwin، قانوني «بتون» Bethune الذي كان تابعه الموالي له منذ أيام معارك «أنجو». كما كان هنالك كاتب الملك (فيليب)، وقسّيس القصر (انسيلم) وخادمه الشاب. أما الباقون فكانوا من الرهبان العسكريين من رهبنة فرسان الهيكل الأشدّاء.

ستة أسابيع بعد مغادرتهم عكا نزلت الفرقة على اليابسة في «كورفو». اختاروا سلوك مسار خطر عبر البحر «الأدرياتيكي» ومن ثم عبروا برّاً ألمانيا للوصول إلىٰ إنكلترا. كان من الممكن أن يكون هدفهم بلوغ «ساكسوني» حيث كان نسيب ريتشارد «هنري أوف ساكسوني» الموقر والماكر (والمعروف بالأسد) يقوم بحركة عصيان مفتوح على حكم إمبراطور ألمانيا الجديد. إذ إن ريتشارد كان قد قدّم في الماضي المساعدة والعون لدوق «ساكسوني» السابق وكان مؤكداً أن هذا المعروف سيُردّ له. ولكن «فيتنبرغ» Wittenberg عاصمة «ساكسوني» كانت تقع إلىٰ أقصى الشمال خلف منطقتي «النمسا» و«بافاريا» المعاديتين. كان من الممكن لهم نظرياً أن يمروا من خلال مضيق في أفريقيا ومن ثم الإبحار عائدين إلىٰ الوطن. ولكن أخطار البحر في تشرين الثاني تفوق أخطار البرّ. وأقل ما في الأمر أنه كان عليه أن يواجه على اليابسة مجرد مخلوقات بشرية في الوقت الذي كان عليه مواجهة قوى البحر الفوق طبيعية والخارقة والتي كان يتعذّر عليه التحكُّم بها.

وصل إلىٰ «كورفو» حسب المسار المقرّر، و«كورفو» جزيرة تقع مقابل الساحل الغربي لليونان. كانت في ذلك الوقت معقلاً للقراصنة ـ فالبحر الأدرياتيكي كله كان بالفعل يعج بهم ـ وقد انعكس هذا الواقع إيجاباً لمصلحة الملك الفار. كانت مشكلته مع القانون أكثر مما هي مع الخارجين على القانون. سرعان ما تخلى ريتشارد عن سفينة القادس الملكية مستبدلاً بها سفينتي قراصنة استخدمهما للتوجه أكثر شمالاً على طول الساحل «الدالماسي».

(فيما بعد تم تصوير تحالف ريتشارد مع القراصنة على أنه نتيجة لمعركة جرت بادىء ذي بدء بينه وبينهم حصد من جرّائها ريتشارد إعجاب القراصنة بقدراته وبطولته في المعارك مما جعلهم ينضمون إليه لمساندته).

بعدها شوهد الجمع الملكي في «داغوسا» المعروفة أيضاً بـ «دوبروفنيك». نقلت بعض التقارير أن سفينته تحطمت على جزيرة «لاكووما» الصغيرة جدّاً مقابل حصن «دوبروفنيك» القروسطي وأنه بنى على ما يبدو كنيسة رهبانية للرهبان «البينديكتيين» الذين كانوا يقطنون الجزيرة تعبيراً عن امتنانه لبقائه على قيد الحياة. إن كان لنبأ تحطم السفينة في هذا المكان صحة أَو أنه وقع أكثر شمالاً في خضم مياه «الأدرياتيكي» ـ أَو أن الروايتين واردتان أَو أن لا صحة لشيءٍ من ذلك ـ ليس بذي أهمية. مهما حدث فالخطوة التالية له كانت توجهه نحو منطقة تُعرف بـ «أكيليا» شمالي «ترييست».

أعاد الملك النظر في وضعه ووجده ميؤوساً منه. ففي الجهة الشمالية كانت تقع الأراضي الخاضعة لسيطرة «ليوپولد» دوق النمسا الذي كان يضمر أكثر الضغائن حدّةً ضده. أما في الجهة الغربية فقد كانت تقع الأراضي التابعة للبندقية مع تجارها الذين هم على أهبة لبيع أي شيء على الأرض لمن يدفع أعلى الأثمان وما بعد ذلك تقع سفوح جبال «البيدمونت» التابعة لـ «كونراد دو منفرّا».

أما هنا على ساحل «الأدرياتيكي» فقد كان «الكونت» المخادع «ماينهارد» حاكم «غورز» Görz والذي كان قريب «كونراد دو مونفرّا» على أقصى أهبة لرصد أي مسافرٍ يحمل الشعار الملكي قد يعبر. وظناً منه أن «هدنة الله» ما زالت قائمة حاول ريتشارد تمرير جماعته مع الصليبيين العائدين بقيادة «بالدوين أوف بيتون» وتاجر ثري اسمه «هيو». وقد قام «هيو» بإرسال خاتم من الذهب باهظ الثمن مرصّع بحجر ياقوت للـ «كونت» لاسترضائه ولكن الهدية السخية هذه كان لها مفعول عكسي إذ أثارت شكوك الـ «كونت»؛ فخاطب أتباعه قائلاً

إن «هيو» لا بد يخبّىء ريتشارد المخادع، ووضع خطةً حاذقةً إلىٰ حدّ بعيد للقبض عليه. قال لرسل ريتشارد، بغية كسب بعض الوقت لتجميع جماعته المدرّبة على القتال: «لقد قطعت عهداً على نفسي أن أعتقل كل حاج عائد من الديار المقدّسة، وأن لا أقبل أية هديةٍ منهم. ولكن من أجل لقاء الشرف الذي خصني به سيدكم سأعيد له الهدية وآذن له بالرحيل». وكشف ريتشارد الخدعة فوراً ففر على ظهر جواده في الليل الدامس وهو متنكر بزي فرسان الهيكل.

مع تيقن أعدائه بوجوده في الجوار ازدادت الأخطار المحدقة به. في «فريولي» وجدت جماعة ريتشارد نفسها في مقاطعة «فريديريك أوف بيتاو» أخو الكونت «ماينهارد». وكان هذا اللورد التافه لا يقل حماساً عن غيره في الاستيلاء على الجائزة الملكية. وفي سبيل دعم هذا المسعى عيّن شخصاً «نورماندياً» من حاشيته اسمه «روجر أوف أرغنتون» لتفتيش كل نزل في المنطقة، يقصده الحجاج العائدون أدراجهم والاستماع إلىٰ أقوال الفرنسيين. وقطع له وعداً بمنحه نصف بيوت بلدته في حال استطاع «روجر» اعتقال الملك.

عندما وافى «روجر» «ريتشارد» وهو متنكر بزي أحد فرسان الهيكل، أصرّ على استجوابه حتى كشف هذا الأخير عن هويته. عندها وبدل تكبيل الملك بالسلاسل خرّ راكعاً من شدّة الانفعال وإجلالاً للملك. وأفضى بكل ما لديه حول الأخطار المحدقة بـ «ريتشارد» وقام بتزويده بدل السلاسل بجواد سريع يعينه على الفرار. عند هذا الإنذار قامت زمرة ريتشارد المؤلّفة من عشرين شريد بالتفرّق في اتجاهات مختلفة. أما «روجر» العائد إلىٰ «فريدريك» فقد أعلمه بعدم وجود أي ملك سوى مجموعة من فرسان الهيكل بقيادة «بالدوين» ولكن دون جدوى. في حركة غضب عارمة قام «فريدريك» باعتقال كل حاج موجود في مقاطعته، ثم إنه عمد إلىٰ زج «روجر» المخلص في السجن معهم. في هذا الوقت كان ريتشارد يتوجه شمالاً نحو «كارنثيا» عبر سلسلة جبال «الألپ» ولم يعد معه من عصبته غير ثلاثة أشخاص.

هل كان على علم بما كان في انتظاره بعد ذلك؟ يسود الاعتقاد أنه تابع سفره عبر الجبال لمدة ثلاثة أيام دون طعام؛ لربما شوش الجوع تفكيره وحرمه من القدرة على التمييز. فقد كان يسير بشكل تلقائي وشبه مغناطيسي نحو «ڤيينا» مقر الدوق «ليوپولد». عندما وصل إلىٰ مشارف المدينة أدرك خطورة الوضع فعلياً فاختبأ في نزل صغير وأرسل خادمه الفتي إلىٰ السوق لجلب المؤن ولكن الولد الأرعن تمادى في الإنفاق وتباهى بتبجح وهو يتكلم عن سيده على أنه رجل ذو نفوذ، مما أدَّى حتماً إلىٰ إثارة الفضول. وفي طريق العودة قام الخادم بالتبختر بين بائعي الخضار وهو يحمل قفّاز الملك مربوطاً إلىٰ حزامه. فاعتُقل وتم تعذيبه، فدلّ على سيده.

عندما اقتحم القاضي النزل الذي كان ريتشارد قد لجأ إليه محدثاً جلبة أسرع الملك بارتداء ثوب فضفاض متسخ وتوجه نحو المطبخ حيث تظاهر بأنَّه أحد العاملين فيه مقلباً الدجاج على النار وهو يبدو كالفلاح المغلوب على أمره.

ولكن الملوك النبلاء لا يتحولون بسهولة أَو بسرعة إلىٰ مساعدي طباخين. عندما طالع هذا المشهد السخيف رجل القانون تظاهر بالأسف على الملك. فقال بازدراء: «انهض يا مولاي. لقد مكثت ها هنا ما فيه الكفاية». وخلال بضع ساعات كان ريتشارد يمثل أمام «ليوپولد». وبعد أن عادت له بقوة ذكرى تعرضه للذل في عكّا على أيدي جنود إنكليز قام السجين بتسليم سيفه لمعتقله. بعد ذلك بقليل تمت مواكبة الملك غرباً باتجاه نهر «الدانوب» حتى قصر «دورنشتاين» Dürnstin الشاهق حيث سجن. لقد شكّلت حادثة سجن ريتشارد بالطبع خرقاً فاضحاً لقانون الأمم في أوروبا آنذاك والقانون الكنسي و«هدنة الله». لم يكن مسموحاً استغلال أي صليبي وهو في «خدمة الله». وقد قام ريتشارد بتذكير معتقليه بذلك بينما كانوا يقتادونه بخشونة لاحتجازه. ولكنه كان يمثل الآن جائزة ذات قيمة كبيرة على الصعيدين السياسي والمالي. سارع

الإمبراطور الروماني المقدس «هنري السادس» بتوجيه أوامره «لليوپولد» تابعه، كي يسلمه الملك «ريتشارد». وفي اجتماعٍ عقد في «فرتزبورغ» قاما بالمساومة على سعر الصفقة التي تمّت في 14 شباط/ فبراير 1193م على أساس مبلغ ستين ألف ليرة من الفضة كرسم محدّد لمصلحة الدوق المغامر. أما الضغينة العميقة التي كان يحملها «هنري السادس» فقد كانت تعود لخسارته «لصقليّة» التي كانت سابقاً مقاطعة تابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة وذلك على يد «تانكرد» المغتصب. وقد كان الإمبراطور الألماني نسيب «كونراد دو مونفرّا». ولكن «هنري السادس» كان له مبرر إضافي. فخلافه مع روما كان امتداداً للخلاف القديم والدائم بين سلطة الكنيسة وسلطة الدولة. فقد تم اغتيال أسقف بارز في مدينة «لياج» وكان الصرح البابوي قد حمّل «هنري السادس» مسؤولية هذا الحادث. وقد كانت غالبية الإمبراطورية تساند روما في موقفها، وكان «هنري الأسد» المحارب الماكر المحنّك هو من يقود العصيان هذا من عاصمته «فيتنبرغ». ولذلك فقد كان «ريتشارد» الرهينة والضمانة الأخيرة في هذه المعركة كذلك. ومن وجهة نظر «هنري» فإنّ العناية الإلهية أرسلت «ريتشارد» رهينةً بين يديه لمساعدته في معركته مع روما.

أسرع الإمبراطور الألماني بإرسال الأخبار المفرحة لـ «فيليب أغسطس» في فرنسا. وأعرب عن فرحته بتبليغه نبأ اعتقال الملك ذاكراً «الخيانة والخداع والأذى المتراكم» في «الأرض المقدَّسة» والتي حمّل «ريتشارد» المسؤولية عنها وكذلك «كل ما فعله «ريتشارد» للإزعاج والمضايقة. ولكنه لم يفصح عن المكان الذي يسجن فيه «ريتشارد».

لاقى المبعوث الذي حمل هذا النبأ السعيد لـ «فيليب أغسطس» الترحاب وحُمل على الراحات. وأكثر ما أضحك «فيليب» هي الطريقة التي تم بها اعتقال «ريتشارد». فاعتقال رفيقه القديم وهو متنكر بزيّ «خادم مطبخ» وهو يقلّب الدجاج المحمّر كان بكل بساطة قصةً مضحكةً للغاية.

انتشر خبر اعتقال «ريتشارد» شيئاً فشيئاً في كل قصور أوروبا. ولا شك في أن الأمير «جون» في إنكلترا كان ليدفع ثمن هذا النبأ العظيم وغير المتوقع بالذهب واللآلىء عندما بلغته رسالة «هنري» من «فيليب أغسطس». فقد بادر إلىٰ عبور قناة النورماندي على الفور وأعلن نفسه وارث أخيه وطلب من «بارونات نورماندي» مبايعته، وقام بالتآمر مع «فيليب أغسطس». حالفه الحظ مع «فيليب» أكثر مما حالفه مع «البارونات النورمان» الذين عادوا وأكّدوا مبايعتهم «لريتشارد».

ولكن روما لم تكن لتفرح. فقد كلّف الدوق ليوبولد أوف أوستريا سجنه للحاج الملكي وخيانته التي كسب منها الفضة من خلال الصفقة الرخيصة التي عقدها مع «هنري السادس»، الحرمان الكنسي. وهدّد «سلستين الثالث» «هنري السادس» بالمصير نفسه إن لم يطلق سراح «ريتشارد» على الفور. فبالنسبة للبابا كان «فيليب أغسطس» على القدر نفسه من الخداع إذ إنه أبى أن يتجاوب مع شكاوى الملك الفرنسي الذي التقاه قبل ثمانية عشرة شهراً في روما عندما توعّده لرفع الخطر عن مسألة مهاجمة الأراضي العائدة «لريتشارد». لو أن الملك الفرنسي كان ليقوم بالاستيلاء على شبر واحد من أراضي «ريتشارد» خلال فترة سجنه المخزي لكان تم إلحاق الحرم «بفيليب» كذلك.

مرّت عدة أشهر دون أن يحصل أي تغيير يُذكر ومؤيدو «ريتشارد» يتساءلون عمّا يعيق الفاتيكان. ونظمت قصيدة سياسية تنتقد الحبر الأعظم وتتهمه بالجبن والخداع: «ماذا عن روما وعن النبلاء، ما الذي يحصل! لماذا ترجىء روما النبيلة استخدام سيف بطرس». وعكست هذا الشعور مجموعةٌ من الأساقفة النورمان بشدّة إذ شعروا أن التحرّك في هذه المسألة ملحّ معنوياً. واستشهدوا في هذا السياق بقصة «بطرس» الذي استل سيفه في الحديقة وقطع أذن خادم الكاهن الأعلى الذي جاء ليعتقل يسوع. كما أنّ هؤلاء الأساقفة كتبوا إلىٰ سلستين الثالث عن السجن الظالم الذي يتحدى كل القوانين والأعراف،

القديمة والجديدة، والذي يشكو منه الشعب، وتعاني منه الأقاليم، ويدفع الكنيسة إلىٰ الصراخ. فأرسلوا كتاباً لـ «سلستين الثالث» ينص على التالي: «هذا الاعتقال الظالم ترفضه القوانين كلها الحديثة والقديمة على حدّ سواء وينتحب له الشعب وترثي له المقاطعات ويدفع الكنيسة للاحتجاج عليه.

أطلق يديك أيها الأب الشكور واستل سيف «بطرس».

ولكن «سلستين الثالث» اختار أن يبقي على سيف «بطرس» المقدس مغمداً، إذ إنه لم يكن على استعداد لاستلاله وقطع أذن إمبراطوره الروماني المقدس.